الفرق الكلامية بين الضرورة المرحلية.. والانحرافات العقدية

The verbal groups between the Transitional necessity and religious deviation

إعداد

د. ميسون سامي أحمد خميس المشهداني

Maysoon Sami Ahmed Khamis Al-Mashhadani

almashmason777@gmail.com

الملخص

ظهرت في تاريخ الأمة الإسلامية عدة فرق كلامية اتخذت من علم الكلام والفلسفة أداة لإثبات العقائد الإسلامية، والرد على شبه المبطلين والمنكرين بالأدلة والبراهين العقلية، وكان أن حدث بعض المخالفات من هذه الفرق التي ركنت إلى العقل البشري المحدود والقاصر، واستندت عليه بشكل كبير في فهمها وتفسيرها للنصوص الدينية، واتخاذها مواقف وآراء جريئة من قضايا شرعية مهمة، ووقعت بعض الإنحرافات والمخالفات الشرعية.

الكلمات المفتاحية: (علم الكلام، العقيدة الإسلامية، مكانة العقل، حقيقة الإيمان، مرتكب الكبيرة، مشكلة خلق القرآن، خلق أفعال العباد) .

Abstract

Several theological groups appeared in the history of the Islamic nation that took theology and philosophy as a tool to prove Islamic beliefs، and to respond to the likenesses of falsehoods and deniers with rational proofs and proofs.

It was that some violations occurred from these sects that depended on the limited and deficient human mind، and relied heavily on it in their understanding and interpretation of religious texts، It relied heavily on their understanding and interpretation of religious texts، and their adoption of bold positions and opinions on important legal issues. And there were some deviations and violations of legitimacy.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين محمد ﷺ المبعوث رحمة للعالمين :

ظهرت في تاريخ الأمة الإسلامية عدة فرق كلامية اتخذت من علم الكلام والفلسفة أداة لإثبات العقائد الإسلامية، والرد على شبه المبطلين والمنكرين بالأدلة والبراهين العقلية، وكان أن تشكل مع مرور الزمن الفرق الكلامية، وتبلورت لها مجموعة من الآراء في العقائد، ووجد لها اتباع يتبنون هذه الأراء ويُنظِرون لها، ووجد لها مخالفون يعارضون ويفندون هذه الآراء بحجج أخرى. وكان أن حدثت بعض المخالفات من هذه الفرق التي ركنت إلى العقل البشري المحدود والقاصر، واستندت عليه بشكل كبير في فهمها وتفسيرها للنصوص الدينية، واتخاذها مواقف وآراء جريئة من قضايا شرعية مهمة، وتخطت حدودها في دراسة ما وراء هذا العالم الدنيوي الظاهر والمحدود، ووقعت بعض الإنحرافات والمخالفات الشرعية؛ لذلك اختلفت آراء العلماء المسلمين في هذه الفرق، ومع ذلك فقد مثل ظهورها علامة فارقة في تاريخ الفكر الإسلامي تستحق الدراسة، مع المؤآخذات عليها لإعتمادها على العقل بشكل كبير، وتعصبها لآرائها ومحاولة فرضها بالقوة، وإنجرارها وراء الخصوم ببحثها في أمور خارج نطاق العقل مما أوقعها في مخالفات عقدية .

أسباب إختيار الموضوع :

١ . نقد الإنتاج التراثي، ومراجعة تاريخية حقيقية لتراثنا الإسلامي، وتسليط الضوء على الإنحرافات العقدية التي وقعت فيها الفرق الكلامية .

٢ . تقديم العلم النافع الذي يتفق مع عقيدة الأمة الصحيحة لأبنائنا الطلبة، ودور هذا العلم في صناعة الوعي، وتشكيل العقل المسلم ودوره في خدمة المجتمع .

٣ . تسجيل الدور والفضل لهذه الفرق في دفاعها عن الإسلام في مرحلة من تاريخها ضد التيارات والأفكار الملحدة .

أهمية الموضوع :

١ . محاولة دراسة علم الكلام كعلم متجدد له أهميته في كل الأزمنة، وعرض مسائله المبحوثة ببساطة ووضوح بعيداً عن التعقيد والغموض .

٢ . الإطلاع على ما كان يثار من مسائل دينية وفكرية وفلسفية في ذلك الوقت، وقياس مدى التطور الفكري في مناقشة وتحليل ومعالجة القضايا والمشكلات الفكرية والفلسفية .

٣ . عرض المسائل التي اشتغلت فيها الفرق الكلامية، وبيان ما نقل من آرائها وحججها في تلك المسائل بموضوعية وصدق بعيداً عن التعصب .

منهج البحث :

المنهج المتبع في كتابة هذا البحث هو المنهج التاريخي، النقدي، التحليلي .

خطة البحث:

تتكون خطة البحث من مقدمة، ومبحثين، وخاتمة تتضمن أهم النتائج التي توصل إليها البحث، وقائمة

بأهم المصادر والمراجع .

المبحث الأول
أثر المتغيرات السياسية والإجتماعية في نشأة الفرق الكلامية

المطلب الأول: أسباب نشوء الظاهرة الكلامية

ظهر علم الكلام نتيجة لتداخل وتظافر عدة عوامل داخلية وخارجية أسهمت في تكوينه وتنشئته، ومن هذه العوامل :

أولاً: القرآن الكريم: إن القرآن الكريم إلى جانب إحتوائه على العقائد الإسلامية فقد أحتوى كذلك على ذكر العقائد المخالفة لها، وعلى الحجج الداحضة لها، فكان ذلك من العوامل الهامة التي أنهضت بعض عقول المسلمين إلى البحث في العقائد، وكيفية الدفاع عنها ضد العقائد المخالفة لها [١].

ثانياً: الخلافات السياسية: لقد لعبت الأحداث السياسية في البيئة الإسلامية دوراً هاماً في نشأة علم الكلام؛ وذلك لإرتباطها بالعقائد، فلقد حاول كل فريق مناصرة رأيه بأن يوجد له أساساً في الدين، فأدى ذلك إلى تأويله للآيات القرآنية بما يتفق مع مذهبه، وأن يضع من الأحاديث ما يناصر رأيه، وأدى ذلك كله إلى صبغ العقيدة بصبغة فلسفية وفهم للعقيدة ذا مسحة عقلية [٢]، فالخلافات السياسية الحادثة في صدر الإسلام قد ارتبطت بالدين وعقائده إرتباطاً وثيقاً، وترتب عليها إنقسام المسلمين إلى فرق متباينة، خائضة في البحث في العقائد على نحو جدلي خلافي[٣]. والمباحث الكلامية قد نشأت في ظل الخلافات السياسية، وأن مشكلة الإمامة وهي التي لا تمثل أصلاً من أصول الدين بل هي من فروعه عند بعض المتكلمين، وهي في لبها مشكلة سياسية نتج عنها مباحث حول الإيمان وحقيقته ، وحول علاقة العمل بالإيمان، ونشأ في كنفها مبدأ الجبر ومبدأ الإختيار، وتطرقت الفرق إلى التأويل العقلي لآيات القرآن والأحاديث، وبدأ النظر العقلي في أصول الدين، وتطرف البعض في آرائه وظهرت الآراء المغالية والمتطرفة، وظهر التأويل الفاسد، والمعنى الباطني، والآراء التي تعد غريبة عن الإسلام [٤].

ثالثاً: الخلاف حول تأويل بعض نصوص الدين: النصوص الدينية كانت من العوامل التي دعت إلى ظهور علم الكلام: إما لأن بعض هذه النصوص قد أثار بطبيعته في عقول بعض المسلمين حب البحث في العقائد الإسلامية والعقائد المخالفة لها، أو لأن بعض هذه النصوص من قبيل المتشابه الذي لا يدرك معناه، كبعض آيات الصفات، وقد أدى تأويل بعض أهل الأهواء لمثل هذه النصوص المتشابهة إلى مشكلات

(١) علم الكلام وبعض مشكلاته ، دكتور أبو الوفا الغنيمي التفتازاني ، ص ٧.

(٢) الفرق الكلامية الإسلامية مدخل ..ودراسة ، دكتور علي عبد الفتاح المغربي، ص ٥٤ .

(٣) علم الكلام وبعض مشكلاته ، ص ١٩.

(٤) الفرق الكلامية الإسلامية مدخل ..ودراسة ، ص ٥٨ .

عقائدية عويصة كانت فيما بعد موضوعاً لذلك العلم [١]. إضافة إلى ما في طبيعة كل أمة من إنقسام في الدين، فالمحافظون في الدين رأوا الوقوف عند النص وعدم الخروج قيد شعرة عما صرح به الدين، والنطق بما نطق به في حدود ألفاظه، والسكوت عما سكت عنه، والأحرار لا يريدون أن يقفوا عند النصوص بل يعملون فيها عقلهم، ويصرحون بما يؤديهم إليه رأيهم، ويؤولون ما يخالفه [٢]، يقول أحمد أمين: في كل ما نعرفه من أديان في أول أمرها عقيدة ساذجة قوية، لا تأبه لخلاف ولا تلتفت إلى بحث، ينفذ نظرها إلى أسس الدين فتعتنقها وتؤمن بها إيماناً تاماً في غير ميل إلى بحث وفلسفة، ثم يأتي طور البحث والنظر وصبغ مسائل الدين صبغة علمية فلسفية، وأذ ذاك يلتجىء رجال الدين إلى الفلسفة يستعينون بها في تدعيم حججهم وتقوية براهينهم[٣]. وهذا الموقف الذي اتخذه المسلمون في العقيدة التي اعتنقوها والمتمثل في الإيمان المطلق في المرحلة الأولى، وفي التفهم والتعقل في المرحلة الثانية هو موقف أي جماعة إنسانية تجاه العقيدة التي تعتقدها [٤].

رابعاً: إلتقاء الإسلام بديانات وحضارات الأمم بعد الفتح الإسلامي: فإلتقاء الإسلام بحضارات وديانات الأمم المفتوحة ترتب عليه صراع عقائدي بينها وبينه، نتيجة إحتكاك المسلمين بأهل الديانات السماوية في تلك الأمصار كاليهود والنصارى، وكان هؤلاء أصحاب علم وفلسفة، ولهم عناية بالجدل في العقائد، فلعله قد ترتب على هذا الإحتكاك أن وجد لدى بعض المسلمين حب الجدل والنقاش في مسائل العقائد الإسلامية على نحو ما إرتآوه ضد النصارى واليهود[٥]، وقد تسرب إلى المسلمين في العصر العباسي شيء غير قليل من اليهودية والنصرانية في التفسير والحديث والمذاهب الدينية والعادات والتقاليد، وأنهما كانتا عنصرين من عناصر الثقافة العامة في ذلك العصر. وقد كثرت المذاهب والنحل في ذلك العصر كثرة مدهشة [٦]، فدخل أوائل المتكلمين في حوار عميق مع أقوام من الملل الأخرى من يهودية ونصرانية ووثنية، وهؤلاء لم يكفهم في الإقتناع أن تذكر لهم آية من القرآن أو الحديث، بل يريدون الرجوع على قضايا تستند على القدر المشترك من العقل، فأضطر ذلك المتكلمين أن يدخلوا في منهجهم ويسلكوا سبيلهم، ويؤلفوا الأدلة العقلية على وجود الله وفي إثبات النبوة [٧].

خامساً: تسامح الإسلام مع أصحاب العقائد المخالفة له: في عصر امتداد الدولة الإسلامية ضم الإسلام أنواعاً متعددة من الأجناس والثقافات، وبذلك تلاقت تيارات فكرية متعددة ومتباينة

(١) علم الكلام وبعض مشكلاته ، ص ١٤ .
(٢) ضحى الإسلام ، أحمد أمين ، ص ٦٩٨ .
(٣) المصدر نفسه، ضحى الإسلام ، ص ٦٨٨ .
(٤) واصل بن عطاء وأراؤه الكلامية ، سليمان الشواشي ، ص ١٢٢ .
(٥) علم الكلام وبعض مشكلاته ، ص١٩ . ٢٠ .
(٦) ضحى الإسلام ، ص ٣١٩ ، ٣٣٢ .
(٧) المصدر نفسه، ضحى الإسلام ، ص ٦٩٨ .

مستغلين سماحة الإسلام ورحابة صدره، بل وإقراره لمبدأ الحوار مع المخالفين، كما استغلوا إنشغال الدولة الأموية بقمع الفتن والثورات، فإندفعوا في جدالهم ومناقشتهم، مستخدمين في ذلك الأدلة العقلية والبراهين المنطقية، حتى كادوا أن يصلوا إلى درجة التحدي[١]، فأدى ذلك إلى قيام فريق من المسلمين يدافعون عن الإسلام ضد هذه الأفكار، وهؤلاء هم المتكلمون، فظهر علم الكلام، وانتعشت الحركة العقلية في الإسلام، واستخدم العقل لنصرة النقل؛ لإثبات العقائد الإيمانية إثباتاً عقلياً[٢].

سادساً: حركة الترجمة: ساعدت الترجمة على بروز الإتجاه العقلي بوضوح في الفكر الإسلامي، وقد كان للترجمة دور في التعرف على علوم شعوب وحضارات أخرى وإقتباس ما يناسب الفكر الإسلامي ..وكانت عند المتشددين من رجال الدين مثاراً للشكوك والريب؛ ظناً منهم بأنها تهدد قواعد الإيمان الديني في نفوس المسلمين[٣]، وعن طريق حركة الترجمة إنتقلت الفلسفة اليونانية إلى المسلمين وكان إطلاع المتكلمين على العلوم المترجمة أن أدى إلى أتخاذ موقف من تلك العلوم، سواءً بالرفض؛ لمعارضة تلك العلوم في جانب الإلهيات لعقيدة الإسلام، أو أنها تمس الجانب الديني ولا تتفق مع العقيدة الصحيحة، أو بالقبول لبعض العلوم التي ليس لها صلة بالعقيدة [٤]. فهذه الأسباب كلها من داخلية وخارجية هي التي كونت علم الكلام وجعلته فناً قائماً بنفسه فكان نتاج أسباب متضامنة وعوامل متضافرة اقتضت وجوده على الصورة التي نراه عليها في تاريخ الفكر الإسلامي[٥]، وكل مبحث من المباحث الكلامية كان له ما يبرره، وأنه كان نتيجة لأسباب أدت إلى قيامه [٦].

المطلب الثاني: الإنحرافات العقدية التي وقعت فيها الفرق الكلامية

من الخلافات العقدية التي وقعت فيها الفرق الكلامية:

١ . تقديم العقل على النقل: من أهم المسائل التي اتفق عليها معظم أهل الكلام هي تقديم العقل على النقل، فالمعتزلة من الناحية العقلية جريئون يقررون ما يرشد إليه العقل، وهم أمام النقل يسلمون ما يوافق منها البرهان العقلي، ويؤولون ما يخالفه؛ فالعقل هو الحكم بين الآيات المتشابهة، وهو الحكم على الحديث، ليقرر عدم صحته أن لم يوافق العقل، ويحتمل التأويل [٧]. ومن مظاهر تمجيدهم العقل تفسيرهم للقرآن بالمعقول أكثر من إعتمادهم على المنقول، وبنوا تفسيرهم على أسسهم من التنزيه المطلق، وحرية الإرادة، والعدل، وفعل الأصلح،

(١) واصل بن عطاء وأراؤه الكلامية ، ص ٨ .
(٢) الفرق الكلامية الإسلامية مدخل ..ودراسة ، ص ٧٢ .
(٣) عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، موفق الدين أحمد بن القاسم المعروف بإبن أبي أصيبعة (ت ٦٦٨هـ) ، ص ٣٩. ٤٠ .
(٤) الفرق الكلامية الإسلامية مدخل ..ودراسة ، ص ٩٨ .
(٥) علم الكلام وبعض مشكلاته ، ص ٧ .
(٦) الفرق الكلامية الإسلامية مدخل ..ودراسة ، ص ١٠٠ .
(٧) ضحى الإسلام ، ص ٧٣٨.

ونحو ذلك، ووضعهم أسساً للآيات التي ظاهرها التعارض، فحكّموا بذلك العقل؛ ليكون الفيصل بين المتشابهات، وقد كان من قبلهم يكتفون بمجرد النقل عن الصحابة والتابعين، فإذا جاءوا إلى المتشابهات سكتوا وفوضوا العلم إلى الله. وقد غلت المعتزلة في تقدير العقل، وقصرت في قيمة العاطفة، وبالموازنة مع فهم الصوفية، فهو على العكس من المعتزلة شعور، وعاطفة، ولا منطق [١] .

٢ . إسقاط أخبار الآحاد في العقائد: صار العمل بالخبر الواحد قضية خلافية بين أشهر الفرق العقدية وهما المعتزلة وأهل السنة ، فقد جرهم القول بسلطان العقل هذا إلى إنكار أحاديث تناقض أسسهم ، وأخبار لا تتفق ومذهبهم، وكان هذا أحد الأسباب التي أثارت الخصومة بينهم وبين المحدثين [٢]، فقد كان موقفهم في الحديث كثيراً ما يكون موقف المتشكك في صحته، وأحياناً موقف المنكر له؛ لأنهم يُحكّمون العقل في الحديث لا الحديث في العقل [٣]، فواصل بن عطاء لا يحتج ولا يعمل إلّا بالحديث المتواتر، أما الأحاديث التي لم تبلغ درجة التواتر كأخبار الأحاد فهي مطروحة في نظره [٤]، والحق هو قبول خبر الآحاد في باب الإعتقاد وفي غيره ما دام ثابتاً [٥].

(١) المصدر نفسه، ضحى الإسلام ، ص ٧٤٠. ٧٤١ .
(٢) ضحى الإسلام ، ص ٧٤٠ .
(٣) المصدر نفسه ، ضحى الإسلام ، ص ٧٥٠ .
(٤) واصل بن عطاء وأراؤه الكلامية ، ص ٢٦٥. ٢٦٦ .
(٥) فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام ، دكتور غالب بن علي عواجي ، ص ١٢٤٥ .

وقد وضع المعتزلة الصحابة والتابعين موضع الناس يخطئون ويصيبون، ويصدر منهم ما يُمدح وما يُذم ، ولم يتحرجوا في ذلك كما تحرج غيرهم [٦]. وقد وقف أهل السنة وقفة حازمة ضد تعديل وتجريح الصحابة، وقالوا أن عدالتهم معلومة بتعديل الله عز وجل أياهم وثنائه عليهم، وكل ما جرى بينهم انبنى على الإجتهاد، ومن أخطأ منهم فهو معذور .

٣ . إنكار الصفات وتعطيلها: ومن الأبحاث العقيمة التي شغل المتكلمون أنفسهم بها هي مسألة البحث والتدقيق في صفات الله تعالى، وهل هي عين الله أو غير الله، وقد خالفوا في ذلك الرأي السائد عند الأمة في هذه المسألة، فالصحابة رضي الله عنهم أثبتوا الصفات بلا تشبيه، ونزهوا من غير تعطيل، ولم يتعرض أحد منهم إلى شيء من هذه، ورأوا بأجمعهم أجراء الصفات كما وردت، ولم يكن عند أحد منهم ما يستدل به على وحدانية الله تعالى، وعلى إثبات نبوة محمد ﷺ سوى كتاب الله تعالى، ولا عرف أحد منهم الطرق الكلامية، ولا مسائل الفلسفة [٧]، أما الفرق الكلامية فقد أعملت العقل في هذه المسائل وبحثت في ذات الله وصفاته، فقد أطلق المعتزلة للعقل العنان في البحث في جميع المسائل من غير أن يحدوه بأي حد [٨] ، وتطرقوا بمسائل لا طاقة للعقل بها كالبحث عن حقيقة صفاته تعالى، وعلاقتها بذاته، وأن كان

(٦) ضحى الإسلام ، ص ٧٤٢ .
(٧) واصل بن عطاء وأراؤه الكلامية ، ص ١٤٦ .
(٨) ضحى الإسلام ، ص ٧٣٧ .

خصومهم هم الذين جروهم إلى هذه المسائل التي يصعب على العقل إدراكها [١]، وقد أفرطوا في قياس الغائب على الشاهد، أي في قياس الله تعالى على الإنسان، وإخضاع الله تعالى لقوانين هذا العالم، فقد ألزموا الله سبحانه وتعالى مثلاً بالعدل كما يتصوره الإنسان، وكما هو نظام دنيوي، وفاتهم أن معنى العدل حتى في الدنيا معنى نسبي يتغير تصوره بتغير الزمان، وكذلك الشأن بقولهم في الحسن والقبح والصلاح والأصلح [٢]. وقد تمسكت المعتزلة بأن في إثبات الصفات إبطال التوحيد؛ لما أنها موجودات قديمة مغايرة لذات الله تعالى، فيلزم قدم غير الله تعالى وتعدد القدماء[٣].

٤ . نفي رؤية الله تعالى في الآخرة: في عقيدة عدم إمكان الرؤية للمعتزلة، أنكروا كثيراً من الأحاديث التي تدل على الرؤية؛ فقالوا إنها أخبار آحاد، وآخبار الآحاد لا توجب العلم إذا عارضها ظاهر القرآن [٤]، مثل قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾[٥]، والأساس الذي بنى عليه المعتزلة نفي الرؤية هو نفي الجسمية عن الله تعالى، فالله تعالى ليس جسماً، ولا يُرى إلّا الأجسام، فهو لا يرى [٦]، ولأن البصر لا يرى به إلا ما كان في جهة دون جهة ، وتعالى الله عن ذلك، لأن ذلك علامة الحدوث، فيجب أن لا يرى بالأبصار، وإنما يرى بالقلوب والمعرفة والعلم [٧] .

٥ . نفي الشفاعة: لا ترى المعتزلة الشفاعة لأحد في الآخرة إلّا للمؤمنين فقط دون الفساق من أهل القبلة، فلا شفاعة لأهل الكبائر؛ لأن إثبات ذلك يؤدي إلى خلف وعيد الله ، وخلف الوعيد عندهم يعتبر كذباً والله يتنزه عن الكذب[٨]، فإحلال الشفاعة عند المعتزلة بأهل العقاب يتعارض مع إنجاز الوعيد، ويحول دون عقاب الله لهم، وقد اصطدم هذا التصور بمعارضة قوية من أهل السنة الذين أجمعوا على انه لا يجب على الله شيء ما، لا ثواب المطيع ولا عقاب العاصي، بل الأمر في ذلك لله، إن شاء أثاب أو عاقب المطيع، وإن شاء عاقب أو غفر للعاصي[٩]، والمعتزلة جانبوا الصواب في الحكم بنفي الشفاعة في العصاة، فإن القول بإثبات هذه الشفاعة مما هو ثابت متواتر عن السلف؛ لثبوت الأحاديث المتواترة بذلك، وإجماع علماء الإسلام عدا المعتزلة،.. [١٠]، وربما السبب في اتساع شقة الخلاف

(١) الفرق الكلامية الإسلامية مدخل ..ودراسة ، ص ٢٢٧ .
(٢) ضحى الإسلام ، ص ٧٣٩ ، ٨٣٨ .
(٣) شرح العقائد النسفية ، الإمام سعد الدين التفتازاني (ت ٧٩١هـ) ، ص ٥٩ .
(٤) ضحى الإسلام ، ص ٧٠٨ .
(٥) (سورة الأنعام – الآية ١٠٣) .
(٦) الفرق الكلامية الإسلامية مدخل ..ودراسة ، ص ٢٢٣.
(٧) الأصول الخمسة المنسوب إلى القاضي عبد الجبار بن أحمد الأسد أبادي ، ص ٧٢ .
(٨) فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام ، ص ١١٩٢ ـ ١١٩٣.
(٩) واصل بن عطاء وأراؤه الكلامية ، ص ٢٠٤.٢٠٥ .
(١٠) فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام ، ص ١١٩٢ ـ ١١٩٣ .

بين هذين المذهبين يرجع إلى إختلافهما في التصور العام لفكرة الألوهية، فالمعتزلة تعتقد ان الله عادل لا يظلم أحداً، وأن ما أخبر به يجب أن يتحقق ليكون الله صادق في خبره، وقد أخبر بثواب المطيع وعقاب العاصي، أما أهل السنة فهم يتصورون أن الله تعالى لا حد لحريته وقدرته، وهذا ما يستلزم عنه إلاّ يكون لأحد من حق أو واجب عليه، ولو كان وعد في القرآن بترتيب هذا الحق على نفسه [١] .

٦ . الكلام الإلهي ومشكلة خلق القرآن: قضية كلام الله هل هو قديم أم حادث شتت أفكار الناس وأدخلتهم في منازعات جدلية شديدة، ودخلت العامة في النزاع، فزادوا المسائل غموضاً وشتاتاً [٢]. وقد أولى المعتزلة مشكلة الكلام الإلهي وخلق القرآن عناية خاصة ، ولقد كان السبب في ذلك هو خوفهم من أن القول بقدم الكلام الإلهي والقرآن (كلام الله) فهو قديم أن يشبه قول النصارى في قدم المسيح وألوهيته وهو كلمة الله ، لذا أهتم المعتزلة بهذه المشكلة إهتماماً خاصاً، وأخذت طابعاً سياسياً حين أوعزوا إلى الخليفة المأمون بأن يجعل القول بخلق القرآن عقيدة رسمية للدولة يُتتبع كل معارض لها بالقتل والحبس والجلد وقطع الأرزاق [٣] .

٧ . خلق الأفعال: خلق الأفعال من أعقد المشكلات التي خاض فيها الفلاسفة والمتكلمون، وقد اتفق المعتزلة على أن الله تعالى غير خالق لأفعال العباد، وأن العباد هم الخالقون لأفعالهم مع أنهم يؤمنون بأن الله تعالى عالم بكل ما يعمله العباد، وأن الله تعالى هو الذي أعطاهم القدرة على الفعل والترك [٤]، والمعتزلة تقول بقدرة الإنسان على أفعاله؛ وذلك لأن الله يفعل الخير، والعبد يفعل الشر[٥]، وإثبات خلق الله تعالى لأفعال العباد فيه نسبة الظلم والجور إليه تعالى والله منزه عن ذلك، .. ولم ينظروا إلى أن الله عز وجل هو الخالق للعباد وأعمالهم، ولا يوجب ذلك أن يكون الله تعالى هو الفاعل لأعمالهم،..فالله تعالى خلق ظلماً من اتصف به من الناس كان ظالماً، وخلق كذباً من اتصف به كان كاذباً [٦]، والواقع أن كل فرقة من الفرق التي تجادلت في مسألة الجبر والإختيار كانت تتلمس من النصوص ما يوافق مذهبها ثم تتأول ما يمكن أن يعارضها من النصوص الأخرى تأويلاً خاصاً [٧]، وقول المعتزلة والقدرية بأن الله تعالى غير خالق لأفعال الناس، بل الناس هم الذين يخلقون أفعالهم بأنفسهم وليس لله تعالى أي صنع في ذلك ولا قدرة ، ولا مشيئة ولا قضاء، فيه تكذيب لله تعالى ورسله عليهم الصلاة والسلام، فالله تعالى يقول: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [٨]، ويقول

(١) واصل بن عطاء وأراؤه الكلامية ، ص ٢٠٥ .
(٢) ضحى الإسلام ، ص ٧١٧ . ٧١٩ .
(٣) الفرق الكلامية الإسلامية مدخل ..ودراسة ، ص ٢١٩، ومفتاح السعادة ومصباح السيادة ، ٢/١٥٧ .
(٤) فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام ، ص ١١٨٢.
(٥) الفرق الكلامية الإسلامية مدخل ..ودراسة ، ص ٢٠٠ .
(٦) فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام ، ص١١٨٢ . ١١٨٤.
(٧) علم الكلام وبعض مشكلاته ، ص ١٣٩ .
(٨) (سورة الصافات – الآية ٩٦) .

سبحانه وتعالى في نفاذ مشيئته ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [1]، فمشيئة الإنسان ليست مستقلة عن مشيئة الله تعالى [2]، وارتأى أهل السنة والجماعة على العكس من المعتزلة أن أفعال العباد كلها مخلوقة لله تعالى، والله تعالى يخلق أفعال العباد كلها خيراً كانت أو شراً، وإن الإنسان مخير مستطاع [3]، فعقيدة الإسلام تقرر أن الخير والشر من الله تقديراً أزلياً، وخلقاً، وايجاداً، على نحو ما وردت به نصوص الدين [4].

٨ . الإختلاف في الحكم على مرتكب الكبيرة: تقول المعتزلة والخوارج بخلود صاحب الكبيرة في النار، وتقول المرجئة بإرجاء موقفه إلى الله تعالى ، وتتوقف في آيات الوعيد، وتقول الماتريدية بجواز العفو عنه، ولله أن يعذبه بقدر ذنبه، أو أن يعفو عنه، لكنه لا يخلد في النار [5]، أما مذهب السلف في صاحب الكبيرة فهو أنه تحت المشيئة، وهو الرأي القائم على الحق الموافق للكتاب والسنة [6] ، وأهل السنة متفقون كلهم على أن مرتكب الكبيرة لا يكفر كفراً ينقل عن الملة بالكلية .. ومتفقون على أنه لا يخرج من الإيمان والإسلام ، ولا يدخل في الكفر، ولا يستحق الخلود في النار مع الكافرين [7]. ولقد احتجت المعتزلة على خلود صاحب الكبيرة في النار بأن القول بجواز العفو عنه فيه خلف لآيات الوعيد؛ إذ أن الأخبار بتعذيب مرتكبي الذنوب عامة ومطلقة ولو أخرج منها شيء لكان خلفاً وكذباً على الله تعالى [8] .

٩ . الإختلاف في حقيقة الإيمان: وقد جعل الخوارج العمل من الإيمان وركن من أركانه الأساسية، وتعويل الخوارج على العمل لأنهم أهل سلوك عملي وليس الدين عندهم مجرد اعتقاد نظري، بل لابد من مطابقة السلوك لهذا الإعتقاد، وهم قد جعلوا الإيمان تصديق بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالأركان، وهم موافقون بذلك لرأي المعتزلة ولرأي معظم الفقهاء والمحدثين [9]. والمرجئة أخرجوا العمل من الإيمان ..فالعمل هو عمل الجوارح، والإيمان هو تصديق بالقلب، وإرتكاب الذنوب في رأيهم لا يهدم العقيدة، ولايخرج الإنسان من الإيمان، بل يجعل صاحبه فاسقاً يتولى الله حسابه وعقابه [10]، وعلى الرغم من التباين في الرأي بين فرق المرجئة فأنهم جميعاً قد اتفقوا على أن

(١) (سورة التكوير – الآية ٢٩) .
(٢) فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام ، ص ١١٦٩. ١١٧٠ .
(٣) علم الكلام وبعض مشكلاته ، ص ١٤٨. ١٤٩ .
(٤) المصدر نفسه ، علم الكلام وبعض مشكلاته ، ص ١٣٨ .
(٥) الفرق الكلامية الإسلامية مدخل ..ودراسة ، ص ٤٠٨ .
(٦) فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام ، ص ١١٦٦ في الهامش .
(٧) شرح العقيدة الطحاوية، الإمام القاضي علي بن أبي العز الدمشقي ، ص ٤٤٢ .
(٨) الفرق الكلامية الإسلامية مدخل ..ودراسة ، ص ٤٠٩.
(٩) المصدر نفسه ، الفرق الكلامية الإسلامية مدخل ..ودراسة ، ص ١٧٦ .
(١٠) المصدر نفسه ، الفرق الكلامية الإسلامية مدخل ..ودراسة ، ص ٥٦ .

الإيمان إعتقاد وتطبيق فقط، أما عمل الجوارح فليس شرطاً في صحة إيمان المسلم [١].

١٠ . ومن المؤاخذات التي أخذت على الفرق الكلامية كذلك هي أنها كانت المنفذ الأول الذي دخل منه فلاسفة المسلمين إلى الفلسفة اليونانية، فالمعتزلة أول من استعان بالفلسفة، واستقوا منها في تأييد نزعاتهم، وقد تأثر شيوخ المعتزلة بعد واصل بالفلسفة فأخذوا يؤيدون مقالته في نفي الصفات ببراهين عقلية، وانتهى الأمر بهم إلى أن قالوا بقول الفلاسفة في هذا الشأن [٢]، فأقوال كثيرة من أقوال النظام وأبي الهذيل والجاحظ وغيرهم بعضها نقل بحت من أقوال فلاسفة اليونان، وبعضها دخله شيء من التعديل[٣]، وعن أبي العز الدمشقي: إنما سمي هؤلاء أهل الكلام لأنهم لم يفيدوا علماً لم يكن معروفاً، وإنما أتوا بزيادة كلام قد لا يفيد، وهو ما يضربونه من القياس لإيضاح ما علم بالحس[٤]، وقد عد كلام أهل الإعتزال وأمثاله كلاماً مموهاً يشبه الكلام وليس بذاك، فذلك علم شرعي باعتبار مسائله، وعلم غير شرعي باعتباردلائله [٥] .

المبحث الثاني
موقف العلماء الشرعي من الإشتغال بعلم الكلام

المطلب الأول: حجج الفرق الكلامية في دفع الشبه عنها

كان المتكلمون يبحثون في مسائل الكلام ويقررون قواعده ويضعون مبادئه. وكان المعتزلة أول من وضع أسس علم الكلام، وعلم البلاغة، وعلم الجدل والمناظرة [٦]، ومما يذكر للمعتزلة إنهم كانوا شوكة قوية في صد مبادىء الزندقة، وقاموا بجهود كثيفة لنشر الإسلام، إلّا إنهم لم يحسنوا التصرف إزاء القول بخلق القرآن وغيره من المبادىء التي عجلت بإضطهادهم بعد قوتهم وشدة جانبهم [٧]، فقد أُنتدبوا للرد على أهل البدع والضلال، وكان المهدي أول من أمر الجدليين من أهل البحث من المتكلمين بتصنيف الكتب في الرد على الملحدين ..وأقاموا البراهين على المعاندين، وأزالوا شبه الملحدين، فأوضحوا الحق للشاكين [٨]، وقد عمل المتكلمون من المسلمين بجد في نشر الدعوة، وعلى رأسهم المعتزلة، ذلك أن هؤلاء المتكلمين هم الذين كانوا يبحثون في الإسلام، ويعللون آراءه وتعاليمه من طريق العقل، على حين أن المحدثين والمفسرين كانوا يخدمون الإسلام من طريق النقل، فاضطر المتكلمون تمشياً مع العقل

(١) واصل بن عطاء وأراؤه الكلامية ، ص ٢١٢.٢١٣ .
(٢) الكلام وبعض مشكلاته ، ص ١١٤ .
(٣) ضحى الإسلام ، ص ٦٩٣ .
(٤) شرح العقيدة الطحاوية، الإمام القاضي علي بن أبي العز الدمشقي ، ص ٢٤٢ .
(٥) مفتاح السعادة ومصباح السيادة ، ٢ / ١٣٣.
(٦) ضحى الإسلام ، ص٦٩٣ ، ٧٥٨ .
(٧) فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام ، ص ١١٦٤ .
(٨) ضحى الإسلام ، ص ١٣٨.

أن يتسلحوا بكل ما يُعينهم في سبيلهم، فاستعانوا بالمنطق اليوناني يصوغون في قوالبه قضاياهم، وعرفوا آداب الجدل والمناظرة، وتقيدوا بقوانينها، وقرأوا بعض كتب الفلسفة اليونانية .. ثم نظروا في كتب الديانات الأخرى وتبحروا فيها، ولم يكن المحدثون وأمثالهم يستطيعون أن يقوموا بمناهضتهم، أنما الذين استطاعوا ذلك وانتدبوا انفسهم للقيام به هم المتكلمون [١]. كانت نظرة المعتزلة في توحيد الله نظرة في غاية السمو والرفعة .. وحاربوا الأنظار الوضعية مثل أنظار المجسمة [٢]، فقد قاوم المتكلمون في كافة الإتجاهات القول بالجسمية الذي كان نتيجة للتيارات الأجنبية، مثل الدياناتت الشرقية القديمة، وتأثرت به بعض الفرق، وعارض المتكلمون نزعات التشبيه، واعتمدوا في ردودهم على القول بأن معنى الجسمية منفي عن الله تعالى، إذ تعني الحد والنهاية، وأنه مؤلف ومركب، وغير ذلك من معاني الجسمية التي لا تليق في حق الله تعالى، ولقد كان المعتزلة من أوائل من قاوم هذه النزعات [٣]. وعندما يتمسك المعتزلة بوحدانية الله تعالى وجعله أصل من أصول الدين فهم يحاولون إقراره في مواجهة منكريه من أصحاب الديانات المخالفة للإسلام، وهم في سبيل تقرير ذلك يعطون صورة لتنزيه الله تعالى ووحدانيته بعيدة عن كل صور التجسيم والتشبيه، ويقاومون تلك النزعات التي تسربت داخل البيئة الإسلامية عند بعض فرق الغلاة المنتسبة إلى الإسلام، وإمعاناً في تأكيد ذلك التنزيه المطلق نفوا أن تكون لله تعالى صفات قديمة؛ حتى لا تشاركه في القدم، ولتأكيد المعتزلة نفي التجسيم والتشبيه أولوا الآيات القرآنية التي قد يوحي ظاهرها بالتجسيم والتشبيه، وتعلق بظاهرها القائلون بالتشبيه والتجسيم من بعض الفرق المنتسبة للإسلام [٤]. وهم يريدون بالعدل ما يتعلق بأفعال الله عز وجل التي يصفونها كلها بالحُسن ونفي القبح عنها، بما فيه نفي أعمال العباد القبيحة عن الله عز وجل، رضاءاً وخلقاً؛ لأن ذلك يوجب نسبة الفعل القبيح إلى الله تعالى وهو منزه عن ذلك [٥]. ورأى المعتزلة أن القول بقدم القرآن تعديل للقديم، كما أنكروا الصفات؛ لأن فيها تعديداً، وأنكروا رؤية الله تعالى، لأن فيها تجسيماً، وبذلوا جهداً كبيراً في نشر مذهبهم [٦]، وقد أظهر واصل بن عطاء رأس فرقة المعتزلة القول بنفي الصفات،.. إذ قال ومن أثبت معنى أو صفة قديمة فقد أثبت إلهين [٧]، وهذا يعني بعبارة أخرى أن إثبات ما هو قديم حتى ولو كان صفة إلى جانب الذات الآلهية معناه إثبات قديمين: الذات والصفة، وعندئذ يكون بمثابة من يثبت إلهين، وقد يكون القول بنفي

(١) المصدر نفسه ، ضحى الإسلام ، ص٣٠٣ ، ٣٢٢ . ٣٢٤ .
(٢) المصدر نفسه ، ضحى الإسلام ، ص ٧٣٧ .
(٣) الفرق الكلامية الإسلامية مدخل ..ودراسة ، ص ١٥٤ .
(٤) المصدر نفسه ، الفرق الكلامية الإسلامية مدخل ..ودراسة ، ص٢٠٤، ٢٠٦ .
(٥) فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام ، ص ١١٨١.
(٦) ضحى الإسلام ، ص ٨٣٠. ٨٣١ .
(٧) الملل والنحل ، ١ / ٤٦ .

الصفات عند واصل وعند من تقدمه كالجهمية رد فعل طبيعي لما أثاره المشبهة والمجسمة من شبهات حول الذات والصفات، أذ نهض واصل وأصحابه للدفاع عن العقيدة الإسلامية، وتجنيبها الأخطار المحدقة بها، إلّا أنه في دفاعه هذا بالغ في الإتجاه المضاد للتشبيه، فوقع هو وأصحابه في نفي الصفات أو التعطيل [١]، فما دعا المعتزلة إلى القول بنفي الصفات هو الدفاع عن العقائد الإسلامية، بدحض مذاهب المشبهة والمجسمة، وهم أيضاً كانوا يخشون أن يؤدي قول بعض الصفاتية في إثبات الصفات مستقلة عن الذات إلى اعتبارها جواهر مستقلة، أو أقانيم كما هو الحال عند النصارى الذين يعتبرون الأقانيم صفات مشخصة [٢]. وقد سلسل المعتزلة عقائدهم تسلسلاً منطقياً، فإذا كان الله تعالى ليس مادة ولا مركباً من مادة فليس له يدان، ولا وجه، ولا عينان؛ لأن ذلك يدل على جزء من كل، والله تعالى ليس كلاً مركباً من أجزاء، وإلاّ لكان مادة، وإذا كان كذلك فليست تدركه عيوننا التي خلقت، وليس في قدرتها إلاّ أن ترى ما هو مادة، وما هو من جهة، وليس كلامه تعالى بلسان وأصوات، وإلاّ لكان جسماً، وإنما يخلق الكلام والأصوات كما يخلق سائر الأشياء، ومن ذلك القرآن، وهكذا كانت كل نقطة تسلم إلى التي تليها، فيسيرون فيها من غير خوف من النتائج مهما كانت، متى أطمأنوا إلى أنهم يسايرون العقل [٣]. ولقد نشأ عن الخلاف بين النصرانية والإسلام أهم مشكلة كلامية وهي مشكلة (كلام الله) وهل هو قديم أم محدث مخلوق ؟ لقد اتخذ المعتزلة موقفاً متشدداً إزاء هذه المسألة، فقالوا بخلق القرآن (كلام الله)؛ وذلك حتى لا يتشابه القول بقدم الكلام الإلهي بقول النصارى بقدم المسيح وهو (كلمة الله)، وجعلوا القول بخلق الكلام الإلهي عقيدة رسمية للدولة في عهد المأمون .. وأنكر الحنابلة وصف القرآن بأنه مخلوق، وكانت فتنة بين المسلمين ومحنة للحنابلة، ولقد دلل المتكلمون . والمعتزلة منهم على الخصوص . على معنى مغاير تماماً لما يفهمه النصارى من (الكلمة) فهي لا تنطوي بحال ما على الألوهية والأزلية، ولا تتضمن وجوداً للمسيح سابقاً على مولده . ورأوا أن القول بقدم القرآن وأنه غير مخلوق فيه أيضاً مساواة بين الله تعالى وبين ما أنزل من الكلام، وهذا هو الشرك والتشبيه بعينهما [٤]. وقد برر المعتزلة قولهم بأن الإنسان خالق لأفعاله بأن بعض الأفعال الإنسانية شر، ولما كان الله لا يصدر عنه ما هو شر.. فهي صادرة إذن عن الإنسان، فالإنسان هو الفاعل للخير والشر، والإيمان والكفر، والطاعة والمعصية، وهو المجازي على فعله [٥]. ويعتبر القول بتسمية مرتكب الكبيرة وفي الحكم عليه عند المعتزلة من أهم المحاولات التي ظهرت

(١) الفرق الكلامية الإسلامية مدخل ..ودراسة ، ص١١٣ . ١١٤.
(٢) علم الكلام وبعض مشكلاته ، ص ١٢١.
(٣) ضحى الإسلام ، ص ٧٣٨ .
(٤) الفرق الكلامية الإسلامية مدخل ..ودراسة ، ص ١٠١، ٢١٩ .
(٥) الملل والنحل ، ١ / ٤٧ .

على ساحة الفكر الإسلامي لأنهاء الصراع السياسي، والخلاف الديني بين المسلمين، وفي الآن نفسه دعوة صريحة لإعادة التماسك الديني والخلقي، وبالتالي جمع كلمة المسلمين وتوحيد صفوفهم، ولكن هذا الرأي لم يخل من مبالغة وتطرف [١]. أما من جهة اشتغالهم بالفلسفة، وتسربها إلى علومهم وآرائهم، فقد دفعتهم إلى ذلك الحاجة؛ لوقوفهم أمام خصومهم يجادلونهم بمثل حججهم، وهذا اضطرهم إلى أن يقرأوا الفلسفة اليونانية، وينتفعوا بالمنطق وباللاهوت اليونانيين [٢]، ومن جهة اعتمادهم على العقل فقد كانت المعارك الفكرية التي خاضها المتكلمون ضد الفكر الشرقي القديم المتمثل في الديانات الشرقية من ثنوية ودهرية وغيرهم هي المهمة الرئيسية للمتكلمين .. ولقد كانت مخالفة المتكلمين لهذه الأفكار والآراء هي العامل الرئيسي وراء التكوين العقلي عند المتكلمين [٣] .

المطلب الثاني: علم الكلام والحكم الشرعي للإشتغال به .

اختلف العلماء في موقفهم من علم الكلام بين مؤيد ومعارض له ، ومن اتخذ موقفاً وسطاً بين هذه الآراء ، ولكل فريق حججه في اتخاذ هذه المواقف .

أنكر الفقهاء والمجتهدين رحمهم الله على المشتغلين بالكلام، فقال الإمام مالك: لا تجوز شهادة أهل البدع والأهواء، قال بعض أصحابه أراد بأهل الأهواء أهل الكلام على أي مذهب كانوا[٤] ، وعن الإمام الشافعي قال: إياكم والنظر في الكلام .. ، لقد رأيت أهل الكلام يكفر بعضهم بعضاً، ورأيت أهل الحديث يخطىء بعضهم بعضاً، والتخطئة أهون من الكفر، وقال أيضاً: لأن يبتلى المرء بجميع ما نهى الله عز وجل عنه سوى الشرك بالله خير له من الكلام، وقال أيضاً: لقد أطلعت من أصحاب الكلام على شيء ما ظننت أن مسلماً يقول ذلك، وقال أيضاً: حكمي في أصحاب الكلام أن يضربوا بالجريد، ويطاف بهم في القبائل والعشائر، فيقال هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأخذ في الكلام [٥]. وقال الإمام أحمد: لا يفلح صاحب كلام أبداً، ولا ترى أحداً ينظر في الكلام إلّا في قلبه مرض [٦] . وقد ورد عن حماد بن أبي حنيفة أنه كان يتكلم في الكلام فنهاه أبوه عن ذلك، مع أن أبو حنيفة نفسه تكلم في علم الكلام [٧]، وآراء المعارضين لعلم الكلام بإيجاز تقوم على: أولاً: أن الله تعالى قد استوفى أصول الدين في الكتاب ووضحها الرسول ﷺ، وبذا لم يكل الناس إلى عقولهم في شيء من الدين

(١) واصل بن عطاء وأراؤه الكلامية ، ٢٣٨ .
(٢) ضحى الإسلام ، ص ٦٩٢ .
(٣) أبو منصور الماتريدي وآراؤه الكلامية ، ص ٤٣٠ .

(٤) مفتاح السعادة ومصباح السيادة ، أحمد بن مصطفى الشهير بطاش كبرى زادة ، ٢/ ١٣٧ .
(٥) مناقب الإمام الشافعي ، الإمام فخر الدين الرازي(ت ٦٠٦هـ)، تحقيق الدكتور أحمد حجازي السقا، ص ٩٩ . ١٠١ . وشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ، الشيخ أبي القاسم بن منصور الطبري الألكائي (ت ٤١٨هـ)، ص ١٤٠ .
(٦) مفتاح السعادة ومصباح السيادة ، ٢ / ١٣٨ .
(٧) المصدر نفسه، مفتاح السعادة ومصباح السيادة ، ٢ / ١٤١ .

.. ثانياً: أن أصحاب هذا الرآي أكثروا الوقوف على ما كان عليه الصحابة والتابعون من عزوف عن البحث والنظر في الدين، فأنهم يرون أن النظر العقلي في أصول الدين لو كان خيراً لما فات النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم أجمعين ولتكلموا فيه، ثالثاً: ما يتولد من استخدام علم الكلام من شر وفتنة [١]. وللرد على ذلك فإنه لم تنتشر في عهد الرسول ﷺ والصحابة مثل هذه المسائل، لذا لم يؤثر عنهم الخوض فيها، لذلك فإن المعارضة المطلقة لعلم الكلام وأنه محرم في ذاته أمر عسير لا يمكن قبوله بإطلاق [٢] . وما نقل عن بعض السلف من الطعن فيه والمنع عنه فإنما هو للمتعصب في الدين، والقاصر عن تحصيل اليقين، والقاصد إفساد عقائد المسلمين، والخائض فيما لا يفتقر إليه من غوامض المتفلسفين، وإلا فكيف يتصور المنع عما هو من أصل الواجبات وأساس المشروعات[٣]، أو لأن المناظرة والجدل تؤدي إلى إثارة الفتن والبدع وتشويش العقائد، أو يكون الناظر فيه قليل الفهم، أو طالباً للغلبة لا للحق [٤]، وعلم الكلام كما يقول الغزالي فيه منفعة وفيه مضرة: فهو بإعتبار منفعته في وقت الإنتفاع حلال أو مندوب إليه، أو واجب كما يقتضيه الحال، وهو بإعتبار مضرته في وقت الإستضرار ومحله حرام [٥]. ويحمل طعن الشافعي في علم الكلام على عدة تأويلات منها: إن الفتن العظيمة وقعت في ذلك الزمان بسبب خوض الناس في مسألة القرآن، أو أن يصرف ذلك الذم إلى الكلام الذي كان أهل البدعة عليه .. [٦]. ونبه أبو حنيفة رحمه الله إلى أن علة علم الكلام لا ترجع إلى طبيعة الكلام ذاته بل ترجع إلى سوء استخدام المتكلمين للجدل، إذ يصبح الجدل غاية في ذاته ولا يكون سبيلاً موصلاً إلى الحقيقة، بل سبيل إفحام الخصم وتكفيره ، وهذا بدوره أيضاً يؤدي إلى حدوث الفتنة والفرقة بين جماعة المؤمنين، خاصة بعد أن خاض المتكلمون في مسائل وتفريعات كانت وليدة عصرهم، وكان للمنهج الجدلي الذي اتبعه المتكلمون أثر كبير في إتساع هذه الخلافات بينهم، حتى أصبح يكفر كل فريق مخالفيه [٧]. فعلم الكلام مباح عند الحاجة إليه في إزالة الشكوك في أصول العقائد والذود عن الدين ضد شبه المبتدعين، ورد حججهم، والكشف عن أمور مخالفة للسنة، كادوا يشوشون عقيدة الحق على أهلها، فأنشأ الله سبحانه وتعالى طائفة المتكلمين، وحرك دوافعهم لنصرة السنة المأثورة بكلام مرتب يكشف عن تلبيسات أهل البدعة المحدثة على خلاف

(١) مفتاح السعادة ومصباح السيادة ، ٢ / ١٣٦. والفرق الكلامية الإسلامية مدخل ..ودراسة ، ص ١٠٦.
(٢) الفرق الكلامية الإسلامية مدخل ..ودراسة ، ص ١٠٧.
(٣) شرح العقائد النسفية ، الإمام سعد الدين التفتازاني (ت ٧٩١هـ) ، ص ٢٥.
(٤) مفتاح السعادة ومصباح السيادة ، ٢ / ١٣٧.
(٥) نقلاً عن شرح العقيدة الطحاوية، الإمام القاضي علي بن أبي العز الدمشقي (ت ٧٩٢هـ) ، ص ٢٣٧ .
(٦) مناقب الإمام الشافعي ، ص ١٠٣ .
(٧) الفرق الكلامية الإسلامية مدخل ..ودراسة ، ص ١٠٥ ، ١١٢.

السنة المأثورة، فمنه نشأ الكلام وأهله [١]. ويشترط في الكلام أن يكون القصد فيه تأييد الشرع بالعقل، وأن تكون العقيدة مما وردت في الكتاب والسنة، ولو فات أحد هذين الشرطين لا يسمى كلاماً أصلاً [٢]، ولقد صنف العلماء في علم الكلام، وألفوا المؤلفات الكثيرة في ذلك. ولقد اتخذ المتكلمون من القرآن أساساً لأدلتهم ومبرراً لقيام العلم، وبينوا أن القرآن يدعو للنظر والبحث والتأمل ..، وأن ما خاضوا فيه من أبحاث لم يكن منهياً عنه في القرآن، بل كان القرآن الكريم داعياً ومسانداً لتلك الأبحاث التي تقوم على الإستدلال العقلي على صحة العقائد الإيمانية [٣] .

إن موضوع علم الكلام يتناول قضايا العقيدة وهذه القضايا ليست آنية وزمانية فحسب بل هي قضايا عامة لا تخص زمان بعينه ..فهي تقوم على العلاقة بين الله سبحانه وتعالى والإنسان، ولابد من تصور بشري وفهم لهذه العلاقة، وإذا كان علماء الكلام قدموا تصوراتهم وفهمهم لهذه العلاقة فهذه التصورات كانت قائمة على العلم السائد في عصرهم، ونتيجة التطور العلمي فقد اتسعت معرفة الإنسان بنفسه وبالعلم الطبيعي، وبذا تتغير مفاهيمنا وتصوراتنا لتلك العلاقة تبعاً لتطور العلم ومعطياته، هذا من حيث الموضوع، أما من حيث المنهج فقد بنى المتكلمون أدلتهم على نمط الإستدلال الفلسفي والمنطقي، واستخدام الأقيسة العقلية، أما طبيعة الأدلة في عصرنا فهي تقوم على الواقع والتجربة والعلم ..والقرآن يدعوا إلى الإستشهاد بالحقائق الملموسة التي يقوم عليها العلم وتحديده لمناطق البحث ..وأن هناك أمور لا توجد داخل إدراك الإنسان، وطالب بالإيمان الإجمالي بأمور الغيب دون تفصيل فيها، وذلك؛ لأن العلم الإنساني محدود وليس علماً مطلقاً [٤]، لذلك فإن علم الكلام من العلوم المتجددة والضرورية وله أهمية في كل الأزمنة .

الخاتمة

يعد علم الكلام أهم فروع الفلسفة الإسلامية، وهو علم يبحث في أصول العقيدة الإسلامية، ويتضمن استخدام الحجج والأدلة والبراهين لإثبات العقيدة الإسلامية، ودفع الشبه عنها عن طريق العقل، ولقد شهد تاريخ الفكر الإسلامي ظهور عدة فرق كلامية أتخذت من علم الكلام مهمة لها في الدفاع عن عقيدة الإسلام بوجه التيارات المعادية، وكان سلوك هذه الفرق أشبه بردة فعل لحالة بعض العقائد في زمنها، فآراء الفرق الكلامية كانت تعكس ما يجري في الحياة الإسلامية في ذلك الوقت من صراع بين الملل والنحل، ومن مشكلات واجهت الأمة الإسلامية في تطورها وارتقائها، لكنها وللأسف وقعت في أخطاء ومخالفات عقدية. ومن التوصيات أو الملاحظات

(١) المنقذ من الضلال ، الإمام أبي حامد الغزالي(٤٥٠هـ. ١٠٥٩م/ ٥٠٥هـ. ١١١١م) ، ص ١٧٥. ١٧٦ .
(٢) مفتاح السعادة ومصباح السيادة ، ٢ / ١٣٢ .
(٣) الفرق الكلامية الإسلامية مدخل ..ودراسة ، ص ١٠٢.
(٤) المصدر نفسه ، الفرق الكلامية الإسلامية مدخل ..ودراسة ، ص ١١١.

التي أذكرها في نهاية البحث :

١ . إن الدين الإسلامي لا يخالف العقل بل يتفق معه، لكن يجب التفريق بين كون العقل مصدراً للمعرفة، وبين كونه أداة لبلوغها .

٢ . تبسيط علم الكلام وجعله سهلاً ميسراً للفهم، والإبتعاد به عن التعقيدات التي لحقته بمرور الزمن .

٣ . إيجاد وتكوين فلسفة إسلامية، يمثل علم الكلام القديم جانباً مهماً في صياغتها، والأخذ منه بما يوافق العقيدة الصحيحة للمسلمين .

المصادر والمراجع

القرآن الكريم .

١ . أبو منصور الماتريدي وآراؤه الكلامية ، دكتور علي عبد الفتاح المغربي ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط٢ ، ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م .

٢ . الأصول الخمسة المنسوب إلى القاضي عبد الجبار بن أحمد الأسد أبادي (٣٢٠هـ-٤١٥هـ)، تحقيق دكتور فيصل بدير عون، الكويت ، ط١ ، ١٩٩٨م .

٣ . شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، الشيخ أبي القاسم بن منصور الطبري الألكائي (ت ٤١٨هـ)، مكتب دار البصيرة، مصر.

٤ . شرح العقائد النسفية، الإمام سعد الدين التفتازاني (ت ٧٩١هـ)، تحقيق علي كمال ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان .

٥ . شرح العقيدة الطحاوية، الإمام القاضي علي بن أبي العز الدمشقي(ت ٧٩٢هـ)، تحقيق دكتور عبدالله بن عبد المحسن التركي، شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة .

٦ . ضحى الإسلام ، أحمد أمين ، مؤسسة هنداوي ، القاهرة ، مصر .

٧ . علم الكلام وبعض مشكلاته، دكتور أبو الوفا الغنيمي التفتازاني، دار الثقافة للنشر، القاهرة .

٨ . عيون الأنباء في طبقات الأطباء، موفق الدين أحمد بن القاسم المعروف بإبن أبي أصيبعة(ت ٦٦٨هـ)، تحقيق دكتور عامر النجار، دار المعارف، مصر، ط١، ١٩٩٦م .

٩ . الفرق الكلامية الإسلامية مدخل .. ودراسة، دكتور علي عبد الفتاح المغربي ، مكتبة وهبة للنشر، القاهرة ، ط ٢ ، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م .

١٠ . فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام، دكتور غالب بن علي عواجي، المكتبة العصرية الذهبية ، جدة ، ط ٤ ، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م .

١١ . مفتاح السعادة ومصباح السيادة، أحمد بن مصطفى الشهير بطاش كبرى زادة ، دار الكتب العلمية ، بيروت.لبنان ، ط١ ، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م .

١٢ . الملل والنحل، أبي الفتح محمد عبدالكريم الشهرستاني، تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل ، مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر، القاهرة ، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٨م.

١٣ . مناقب الإمام الشافعي، الإمام فخر الدين الرازي(ت ٦٠٦هـ)، تحقيق الدكتور أحمد حجازي السقا، نشر مكتبة الكليات الأزهرية ، مصر، ط١، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م .

١٤ . المنقذ من الضلال، الإمام أبي حامد الغزالي(**٤٥٠**هـ . **١٠٥٩**م/ **٥٠٥**هـ . **١١١١**م) ، تحقيق دكتور محمد محمد أبو ليلة، ودكتور نورشيف عبدالرحيم رفعت، نشر جمعية البحث في القيم والفلسفة، الولايات المتحدة الأمريكية .

١٥ . واصل بن عطاء وأراؤه الكلامية ، سليمان الشواشي ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا ، **١٩٩٣**م .